التربية الروحية

التربية الروحية

تعريفها:

هي التربية التي تعمل ضمن منهج قرآني إلى تملك القدرة النفسية بطريقة المجاهدات لتسخيرها طواعية في تطبيق حقائق الأمور الشرعية باطمئنان ورضا ويقين.

ولابد من شرح إجمالي لهذا التعريف:

هي التربية التي تعمل ضمن منهج قرآني أي هي الأساليب التربوية التي يسلكها المربي معتمداً فيها على القرآن أدلة وأسلوباً، فمثلاً ذكر الله عز وجل، وقيام الليل، والصيام، والزهد القلبي، هذه كلها لها أدلتها المبينة الواضحة وأساليبها التي أخذت من السيرة النبوية.

وتملك القدرة النفسية يراد بها تكوين الإرادة عند المسلم ليتخذ القرار أمام نفسه وفي خضم مجتمعه، على رغم الأهواء المتلاطمة، والشهوات المتعددة، ولا يمكن تملك القدرة النفسية إلا باتباع المنهج القرآني بالمجاهدات المستمرة، وخاصة في بداية السلوك التربوي، ليحصل المؤمن على ركن من أركان الإيمان وهو الإحسان. بطريق المجاهدات.

وطرق المجاهدات كثيرة، وأضمنها ذكر الله عز وجل والإكثار من الذكر

والتسبيح واتخاذ الأوراد المستمرة الثابتة. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[1] لتسخيرها طواعية في تطبيق حقائق الأمور الشرعية.

فالنفس التي حصلت على الإرادة الفاعلة، وتملكت جميع قدراتها فاستجمعت قواها، فصارت نفساً مطمئنة يعلوها مقام الإحسان، وهو الشعور المتكامل بكونها تراقب الله ويراقبها الله حساً وشعوراً، هي التي تسخر الجوارح لتطبيق الأمور الشرعية ظاهراً وباطناً، أركاناً وحقائق، فصلاته تعلوها السكينة مقرونة بالخشوع، مجللة بالوجل، وما هي إلا لقاء الروح مع المعاني القرآنية حقيقة وذكراً شمولياً وتسبيحاً يقينياً، وهو في حالة الرضا والطمأنينة واليقين.

ماهيتها:

القرآن الكريم هو دستور المسلم، وقد تكامل في اهتماماته، فكان شاملاً لكل جوانب الحياة التشريعية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فأعطى فيها خطوطاً عريضة، فصلت وشرحت بالسنة النبوية، وباجتهاد العلماء، ونتج عن ذلك الفقه وأصوله، وعلم المواريث، وعلم الحديث ومصطلحه، ثم جاءت علوم شتى تساعد في استنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية، مثل علوم النحو والصرف والبلاغة. وهكذا تفرعت هذه العلوم الإسلامية تفصيلاً رائداً في المعرفة الإسلامية. وإزاء هذه العلوم نتج علم اتخذ طابعاً سلوكياً عملياً استنبط الآيات القرآنية التي تعالج النفس وتزكيها، وتطهر القلب، هذا المنهج اتخذه النَّبي ﷺ مبتدئاً بغار حراء تعبداً وتنسكاً ليستعد

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٩.

لتلقي أوامر الشريعة ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1]، ثم تابعه المجاهدون المؤمنون حتى زكت نفوسهم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[2]، ثم وجد التابعون حاجة الأمة إلى هذه المعرفة فاستدركوا هذه المعاني، وركّزوا عليها وأفردوا لها دروساً فسُمِّي أصحابها الزهاد، وكان سيدهم الحسن البصري رضي الله عنه، فعندما كثرت أمراض المسلمين النفسية مثل محبة الذات، والكبر، والنفاق، والرياء، والكذب، والغيبة، والاستغلال، والحقد، والحسد... كل ذلك دعاهم إلى خوض علم التربية الروحية المستنبط من القرآن الكريم منهجاً، والسنة النبوية العملية سلوكاً فنشأ هذا العلم إزاء تزايد المادية لدى المسلمين، وعندما دخلت الشوائب على المجتمع الإسلامي التي كادت أن تقوضه استنفر العلماء المخلصون لتزكية النفس، والتركيز على المعاني الروحية. وهذا ليس بدعاً وإنما هي المتابعة المستمرة لحاجة الروح الملحة، فجميع الديانات أعطت للروح أهميتها، وأرست قواعد صفائها وطهرها، والقرآن هو دستور خاتم الديانات، وهو الشفاء الكامل لأمراض النفس، لجمع طاقاتها الرائدة، ليسهل عليها العمل بالتكاليف المأمور بتنفيذها، ولذا كان جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، لتتبرأ من جميع أمراضها ولتحقق أسمى معاني العبودية، فترسخت قواعد التربية الروحية، ودأب المربون على السلوك التربوي القرآني، فأعطت هذه التربية الروحية ثمارها يانعة، خلقاً وصفاء، وطهراً، وإنابة وخشوعاً وتبتلاً، وكان منهجها الأول تزكية النفس ومخالفة الهوى ومجاهدة النفس وحضور القلب. وكل ذلك لتحقيق العقيدة تحقيقاً في أسمى غاياتها، فاستخدمت الوسائل المعينة ومنها ذكر الله عز وجل ومحبة الله، وقيام الليل، والتهجد،

---

(١) سورة المزمل: ٥.

(٢) سورة الأعلى: ١٤ـ١٥.

وصيام النافلة. وإزاء هذا الواقع، وفي خضم الصراعات الفكرية والفرق الإسلامية المتناثرة نسبت التربية الروحية إلى اسم التصوف، لاشتراك منهجها مع بعض الفلسفات الصوفية القديمة، والتربية الروحية هي ركيزة الديانات، بل أسست عليها، ففي جميع الديانات صلاة وصوم ومجاهدات ورياضات نفسية، فهل نُعرض عن جميع هذه الأمور لأنها وجدت في الديانات القديمة، ثم نتهم هذا المنهج التربوي النفسي بأنه بدعة نرفضها، وأسلوب ننبذه. ولكننا في وسط هذا الاحتضار من الأفكار المتشائمة السوداء لنبذ كل ما كان مشتركاً مع الديانات والفلسفات، علينا أن نستفيد من الأساليب التربوية التي تخدم تربية المسلم؛ والتي اعتمدت على النصوص الإسلامية الصحيحة، فننبذ الأسماء التي دخلت عليها شوائب ليست من الإسلام بداية ونهاية، فاسم التصوف أطلقه البعض على هذه التربية الروحية وإزاء هذا المصطلح الذي عمل بعض العلماء لإقحامه في فلسفات استشراقية وفلسفات يونانية، حتى خرج البعض عن مصطلحات القرآن الأساسية، فلنسمع نداء المربي الروحي الجليل، الذي عرف الداء العضال في المجتمع الإسلامي، واستنبط أسلوبه التربوي القرآني صافياً نقياً بعيداً عن الشوائب اللاحقة في التصوف فقال: نريد تربية روحية قرآنية نبوية، وانبذوا المصطلحات التي نختلف عليها. ففي القرآن آيات جمة عن ذكر الله تعالى، وهذه الآيات سنفرد لها باباً كاملاً، وفي القرآن اهتمامات كثيرة بالقلب وعن القلب وأحواله وأمراضه وسنفرد له باباً كاملاً، وفي القرآن مجاهدة النفس والهوى وأيضاً سنفرد له باباً، ثم قال: فإذا وجدنا مصطلحات القرآن كثيرة فلم نعرِّج إلى المصطلحات المختلف عليها، فلننبذ اسم التصوف جانباً ولنفتح باب علم جديد هو علم تزكية النفس وتربيتها، فالتربية الروحية في القرآن غنية عن كل علم، وبذا نكون قد حققنا الغاية الكبرى في تحقيق مقام الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه

فإنه يراك»[1]، وهذه أسمى درجات المراقبة لتحصيل تزكية النفس وتطهيرها من عيوب الرياء والكبرياء وغيرها.

ولابد لنا في هذا العلم من معرفة الأدلة الكاملة من الكتاب والسنة وعمل الصحابة وسلوك السلف الصالح.

وإنني في هذا العمل المتواضع سأدرج موازنة في التربية الروحية بين الصوفيين والمخالفين لهم من العلماء، فكلاهما عملا على إرساء قواعد التربية الروحية واختلفا على المصطلحات، مما دعا بعض البسطاء من الناس أن يحاربوا التربية الروحية لزيغ بعض الصوفيين، ولابد من الإشارة إلى أمور هامة في هذا العمل الجاد منها أن بعض الفقهاء انحرفوا باستنباطاتهم، وكثير من المحدثين كذبوا على رسول الله ﷺ، وهناك مؤرخون زوروا تاريخنا وشوهوا قيمه، ومفسرون ضلوا وأدخلوا الإسرائيليات، وعلماء في العقيدة زاغوا وتزندقوا، فهل نترك العلوم لانحراف البعض أم ننتخب القيم، ونركّز على الصواب، ونحذر من الخطأ والزلل، ثم ندعم الفكر الصائب، والعلم الجيد.

وهذا ما نجده في التربية الروحية، ولابد من خوض غمار القرآن الكريم لننثر على صفحات هذا البحث الآيات الروحية التي أرست قواعد التربية الروحية القرآنية الكثيرة.

وأهمية التربية الروحية تكمن في الأوامر القرآنية المتعددة التي تلح على تمثل هذه المعاني؛ وخاصة عند العلماء والدعاة، حتى يكون لهم الأثر الواضح في إمداد الناس بروح عالية، واستقامة وإنابة ومحبة، وقرب من كل المعاني السامية التي ترفع كوابيس الضعف والوهن عن المسلمين، الذين

---

(١) متفق عليه.

جمدت قلوبهم وأصابهم ما أصاب من قَبْلَهُم حيث قست قلوبهم لطول الأمد في البعد عن كتاب الله: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1].

* * *

(١) سورة الحديد: ١٦.

التربية الروحية
في القرآن الكريم

التربية الروحية في القرآن

قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [سورة الحديد: ١٦]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

[سورة النحل: ١٢٨]

وقال أيضاً: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾

[سورة الحج: ٤٦]

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [سورة الأنفال: ٢]

وقال أيضاً: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [سورة الجمعة: ٢]

وقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [سورة الشمس: ٩-١٠]

وقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [سورة الأعلى: ١٤-١٥]

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [سورة الرعد: ٢٨]

وقال: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ ﴾

[سورة البقرة: ١٥١]

وقال: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [سورة البقرة: ١٥٢]

وقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾

[سورة النازعات: ٤٠-٤١].

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩]

وقال: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢]

وقال: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [سورة الكهف: ٦٥]

وقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

[سورة يونس: ٦٢]

وقال: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ﴾ [سورة العنكبوت: ٦]

وقال: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾

[سورة الأنعام: ١٠٤]

وقال: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [سورة الشرح: ٧-٨].

وقال: ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ . . . ﴾ [سورة آل عمران: ٧٩]

وقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ [سورة آل عمران: ٧]

وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

[سورة المنافقون: ٣]

وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾

[سورة الأنعام: ٢٤]

وقال: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة المطففين: ١٤]

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [سورة الأحزاب: ١٢].

وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [سورة محمد: ٢٤]

وقال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢]

وقال: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ ﴾

[سورة البقرة: ٧]

وقال: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ ﴾ [سورة البقرة: ٨٨]

وقال: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾

[سورة التوبة: ١٠٨]

وقال: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [سورة الشمس: ٧-٨]

وقال: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾

[سورة الكهف: ٢٨]

وقال: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [سورة المزمل: ٨].

وقال: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾

[سورة النجم: ٢٩]

وقال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا . . . ﴾

[سورة طه: ١٢٤]

وقال: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ ﴾ [سورة الحشر: ١٩]

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

[سورة آل عمران: ١٩١]

وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾

[سورة الفتح: ٤]

وقال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [سورة الحجر: ٤٢]

وقال: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [سورة المائدة: ٥٤]

وقال: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [سورة التوبة: ٢٤]

وقال: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [سورة النور: ٢١]

وقال: ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة النور: ٣٧].

وقال: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾

[سورة الأعراف: ٢٠٥]

وقال: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [سورة الحجر: ٩٩]

وقال: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢]

هذه الآيات المنثورة في عقد القرآن هي دستور التربية الروحية والتزكية النفسية، فطهارة القلب، وتزكية النفس، عبارات ركّز القرآن عليها وأعطاها أهمية كبرى، فعندما نسمع: ﴿لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ ومن ثم يوضح حالات القلب ويعدد أشكاله ﴿في قلوبهم مرض﴾ وهذا هو القلب

المريض وعندما يذكر ﴿أم على قلوب أقفالها﴾ وهذا إرشاد لنوع من أنواع القلوب التي أقفلت بالمعصية والكفر وتركت طريق الخير متنكبة الطريق الحق. . . وذكر عمى القلوب فقال: ﴿إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب﴾ فذكر أنواع القلوب معدداً منها السليم والأعمى والمختوم عليه والمقفل، وأرقاها القلب السليم الذي عمل صاحبه تربية ومجاهدة وطاعة وإخباتاً بشكل مستمر، ومن ثم ذكر الله: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾ وجاء القرآن بجميع الآيات في الوسائل التربوية ووضحها، واهتم الفقهاء بآيات الأحكام وآيات القصص القرآني ولم يعطوا هذه الآيات التربوية أهميتها فهناك:

آيات في التزكية.

وآيات في أحوال النفس والهوى، والحب والخوف.

وآيات في القلب والروح.

وآيات في ذكر الله ومحبته.

وآيات في مجاهدة النفس وخشوعها.

وآيات في الزهد والصبر والتواضع والتوبة.

وآيات في الإخلاص والرضا واليقين والأنس والقرب.

وآيات في التهجد وقيام الليل.

هذه الآيات الكثيرة هي غاية نزول الوحي، وهدف الرسالة، وخاتمة مراد الله في شرائعه، فالمسلم الذي يصلي ويصوم وليس له نفس مزكاة ولا يملك قلباً ذاكراً وقد أعطى نفسه هواها ولم يجاهدها في الحق، وما عرف الزهد، ولا التواضع ولا الإخلاص، وما عرف الأنس بالله، هو مسلم صورة لا معنى، ظاهراً لا حقيقة، فما فائدة صلاة جافة لا روح فيها ولا حياة ؟ ولهذا ضعف الإسلام وهدأت روح المسلمين في أتون الجمود، فلا حرارة ولا شوق ولا محبة ولا خوف، وإنما نفس لا تختلف عن بقية

الأنفس، وصار المسلم متبلد الشعور، بارد الروح، متجمد الفؤاد، وبهذا كانت نهاية رفعته وانحطاط عزته.

قال محمد إقبال موضحاً سبب تخلف المسلمين عن تمثل القيم الإسلامية، وبعدهم عن ساحة الروح، وانشغالهم في أمور أدت إلى ضعف واضح تمثل في علمائهم خاصة، قال: (السجدة خامدة جامدة، لا حرارة فيها ولا شوق، فلا عجب فقد انطفأت شعلة القلب، وخمدت جمرة الفؤاد).

وكل هذه المعاني لا تتحقق إلا باتخاذ التربية القرآنية منطلقاً حتمياً في كليات الدعوة والمدارس الشرعية حتى تتحقق المعاني الروحية القرآنية في طلاب العلم والمعرفة الشرعية، أساتذة وطلاباً.

* * *

التزكية الروحية
في القرآن

التزكية الروحية في القرآن

آيات التزكية في القرآن:

١ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الجمعة: ٢]

٢ـ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [سورة الأعلى: ١٤ـ١٥]

٣ـ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [سورة الشمس: ٧ـ٨]

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [سورة الشمس: ٩ـ١٠]

٤ـ ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ [سورة البقرة: ١٥١]

آيات التزكية في القرآن واضحة جعلها الله ركناً من الأركان في هدف الرسالة. ومهمة الرسول العملية: أن يتلو الآيات على المسلمين، ويعلمهم الكتاب، ويزكي نفوسهم؛ فالتزكية النفسية في عمقها الوجداني تهدف إلى توازن داخلي لدى الإنسان لضبط دواعي الشهوات، وقهر الشاذ منها بقوة روحية، ليتحرر المسلم من الضغوط الظاهرة والباطنة؛ وليكون عبداً لله في ظاهره وباطنه، ولكي تمتزج العبودية في وجوده حباً وتزكية وسلوكاً.

إن التزكية الروحية شعبة من شعب الدين، ومهمة من مهام الرسول عليه الصلاة والسلام، وأكد الصوفيون على اتباع منهج واحد خاص للحصول على التزكية، وحبذا لو ابتعدنا عن هذا المصطلح وهو التصوف وعدنا إلى المنهاج العملي للحصول على نفس مزكاة، فسمينا هذا العلم بالإحسان، أو علم التزكية، كما قال أبو الحسن الندوي فلنقل: إنه فقه الباطن.

فالمسلمون كثر، ولكن لم تتزك نفوسهم من الأمراض الباطنية، من حسد وشح ورياء وكبر وأنانية وحب للظهور ونفاق ومداهنة وخضوع للمادة والقوة. وهذه الأمراض لا يشفى منها المسلم إلا بالتزكية الروحية، وإن الخلاص من هذه الأمراض يحتاج إلى مجاهدة في تزكية النفس لتتحقق الهداية كما وعد الله: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾، ومن ثم وضع الأصول في التربية الروحية موضعها، فالإخلاص في الدين مكانه الروح من البدن، وهو شرط أساس في قبول الأعمال والعبادات.

ثم إن صفات الصبر والتوكل والزهد والقناعة، والإيثار والبذل والسخاء، والشوق إلى لقاء الله، والابتهال في الدعاء، والبكاء من خشية الله، والحنين إلى الطاعة، وطول القيام في الليل، هذه الصفات هي درجة الإحسان، ولا تتحقق إلا نتيجة التزكية الروحية؛ فهل يستطيع المسلم أن يكون مخلصاً يملك كل صفات الربانيين دون الدخول في مدرسة التربية الروحية ؟ وقد عمل الصوفيون على جمع هذه الآيات ونسبوا لأنفسهم خاصية الاهتمام بهذه التزكية، وقام بعض المسلمين بالإعراض عن الغاية لمحاربتهم لاسم التصوف، ثم إننا لابد لنا من ترك هذا اللفظ إلى الغاية الكبرى لتتحقق فينا التزكية النفسية.

فهل نحارب الإخلاص لأن الصوفيين تبنوا الوسائل للحصول عليه، أو

نهاجم الإحسان ونحارب مقامه، لأن الصوفيين عملوا وجاهدوا وتحققت في بعضهم هذه الصفات ؟ فلنرجع إلى التزكية القرآنية ونعمل على سبر غورها، ثم ندرك الوسائل التي اتبعها الرسول عليه الصلاة والسلام في تحقيق هذه المعاني الجوهرية في إسلامنا.

فالتزكية الروحية وسيلة ومنهج قرآني نبوي لابد لكل مسلم من اتباعه لتتحقق فيه المعاني القرآنية، وسنلخص تجربة المؤمنين المخلصين في منهجهم الذي اتبعوه في هذا المجال.

١ـ مجاهدة التوجيه المستمر والتذكر الدائم لله ولوعيده، والخوف من عقابيل النفس الأمارة بالسوء. وتتم مجاهدة النفس بمخالفتها، ومخالفة النفس هي سر المجاهدة.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1] فالمخالفة للنفس هي حقيقة المجاهدة، فبعد المجاهدة تتحقق التزكية، ولا تتم التزكية إلا بالتخلية ثم يتبعها التحلية، فيتخلى المسلم عن كل صفات السوء، ثم يتحلى بصفات الإيمان والإحسان الرفيع. فمن تزكت نفسه بلغ درجة المحسنين؛ ويعمل أهل التزكية بشيء عظيم يثابرون عليه وهو ذكر الله عز وجل.

٢ـ ذكر الله عز وجل هو الوسيلة في استقطاب النور الإلهي في القلب، وآيات ذكر الله في القرآن كثيرة وبها تتحقق معاني تزكية النفس ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة﴾ فالذكر وسيلة من الوسائل لتجميع طاقات النفس لتستجلب كشف البصائر ورفع الغشاوة عن القلب لنبصر نور الله عز وجل.

---

(١) سورة النازعات: ٤٠ـ٤١.

وسنوضح ذلك في ذكر آيات الذكر وأحاديثه، ولا نريد الخوض في مناقشة جانبية حول الذكر.

٣ـ مراقبة الله في السر والعلانية ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ وهو الشعور الملازم للنفس لتتخلص من أمراضها، ولتتحمل وتعمل على التخلق بأخلاق القرآن المطالب بها كل مسلم.

٤ـ قيام الليل، والتهجد، والصوم، وصحبة العلماء العاملين والمربين المخلصين والإخوة في الله، كلها وسائل معينة للحصول على التزكية.

٥ـ التعلم من المربي الذي ملك نواصي التزكية، وحمل نفسه على التربية الروحية القرآنية، وتخلق بأخلاق الربانيين، فإن في صحبته تزكية، وهي عمل الوارثين، فالعلماء ورثة الأنبياء، ومهمة الرسول عليه الصلاة والسلام تزكية النفوس، فلابد من وجود علماء ورثوا عن النبوة هذه المهمة، وتحققت في نفوسهم، وملكوا الإرادة وتخلوا عن كل الصفات السيئة، وتحلوا بكل الصفات المأمور بها شرعاً، فإنهم يملكون القدرة على تزكية النفوس التي تستمع لأحاديثهم، فالمؤمن أخو المؤمن، والمربي هو الأخ الذي يتوجه إلى الله متضرعاً أن يتجلى على أخيه المؤمن ليمسح عنه أوضار النفاق، وليبني فيه صفات المؤمنين المخلصين؛ فارتباط المؤمنين بعضهم ببعض يشكل معهم رابطة إيمانية روحانية قوية تساعد في عملية التزكية الروحية، وذلك بقوة الروحانية عند المربي الذي قاد مدرسة التربية الروحية وعملية التزكية النفسية الصعبة والطويلة.

٦ـ العمل للحصول على القلب الذاكر ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ وسنفرد بحثاً عن القلب وأحواله وأمراضه وأشكاله.

وإن القلب الذاكر هو القلب الذي صار شعلة دائمة بنور الله وقُذفت المعرفة فيه، فالقلب المطمئن بذكر الله هو القلب الذي ملك صاحبه إرادة

قوية في حال الرضا والغضب، وفي حال المنشط والمكره واليسر والعسر، والقلب هو مركز الروح وبه تقوى النفس لتتزكى، وإن آيات القلب في القرآن كثيرة جداً، وسنعمل لبحث معالجة القلب كوسيلة من وسائل التزكية الروحية القرآنية.

٧ـ العبادات والطاعات، وهي النوافل التي يتقرب العبد فيها إلى الله ليحصل على درجة المحبة: «ولا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته صرت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به»[١]، وهي النتيجة الحتمية للحصول على نفس مزكاة تبصر لله وفي الله، وتسمع لله وبالله، فتملك القيم الإيمانية الحقيقية السليمة، وتملك زمام النفس في اتباع ما يأمر الله به وما ينهى عنه.

٨ـ الدعاء المستمر، والسماع للقرآن الكريم، والتغني بآياته، والوجد بالمدائح، وحضور مجالس الذكر والمدائح، هذا ما كان عليه الرسول ﷺ في سماع آيات القرآن وسماع الصحابة للشعر الذي يولد العاطفة الجياشة، وهي التي تحرض النفس على الميل الدائم لدواعي الروح السامية.

٩ـ التفكر بآلاء الله تعالى، وهذه استجابة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٢] فالتفكر عبادة، ويكون بإعمال الفكر في كل المرئيات، وما تسمع وما تشاهد، لتقف في تحليل فكري لتصل إلى عظمة الموجد وقدسية الخالق: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة...»[٣].

---

(١) متفق عليه.

(٢) سورة آل عمران: ١٩٠ـ١٩١.

(٣) الفوائد المجموعة للشوكاني، انظر القرطبي ج ٤، ص ٣١٤.

والتفكر بآلاء الله أمر في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وعلى كل مسلم أخلص دينه، أن يعيش حياة فكرية تجلب له الانغماس في عمق الآلاء حتى يصل إلى معرفة الله الخالق المدبر، والتفكير استجلاب الطاقة الفكرية نحو الله عز وجل الذي أوجد كل شيء، وفي هذا الأمر تجميع لطاقة النفس نحو ربها وخالقها، وفي هذا تزكية وتطهير وتجميع للطاقة الإنسانية الروحية لتصل إلى الإيمان المطلق، ثم المحبة الكاملة، ثم العبودية الحقة عن طريق اليقين العقلي المعتمد على التفكر بآلاء الله عز وجل، وفي القرآن آيات كثيرة متناثرة تحثنا على التفكر الدائم والمستمر بآلاء الله.

١ـ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

[سورة آل عمران: ١٩١]

٢ـ ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾

[سورة الأعراف: ١٨٥]

٣ـ ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يونس: ١٠١]

٤ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [سورة يوسف: ١٠٥]

٥ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: ٤٦]

* * *

حاجتنا إلى
التربية الروحية
القرآنية

حاجتنا إلى التربية الروحية القرآنية

لقد كثر العلم والعلماء، وغص المجتمع بالمثقفين المسلمين، ولكن قل العمل بهذه المعرفة، وضعف السلوك، وانحرفت الأنفس وزاغت القلوب، ولا شك بأن هذا يدعونا إلى تفسير هذا الواقع المنحرف، والطمي والزيغ في المجتمع الإسلامي الكبير. علم وفير، معرفة وفكر، اطلاع ومدارسة وبجانبه انحراف وضياع وزيغ، فما هو الحل لهذه المعضلة الخطيرة ؟ وهذا الرغام المتزايد في عالم المثقفين والملتزمين فكراً والدعاة نظرياً، ويهددنا الله تعالى بقوله: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[2]، والأحاديث كثيرة في وعيد من تعلم ولم يعمل بعلمه، وأول ما تسعر النار بعالم لم يعمل بعمله.

لقد نشأت جميع العلوم الإسلامية؛ من فقه وأصول، وعلم الحديث ومصطلحه، والتوحيد، وعلوم الكلام والمنطق، وقواعد اللغة، وذلك للحاجة الماسة إليها لفهم الكتاب والسنة.

---

(١) سورة البقرة: ٤٤.

(٢) سورة الصف: ٣.

وعندما تزايدت الحاجة إلى الانتقال من هذه المعرفة إلى التضحية، قامت فئة مخلصة تقرأ نصوص الشريعة وتناقش فيها، وجدت أنها بحاجة ماسة إلى القدرة على تطبيقها، ومساعدة النفس وترويضها للعمل بكل ما علمت، وظهرت فئة كبيرة من العلماء يعملون ظاهراً من القول ولا يعملون بما يعلمون، قلوبهم حاقدة، ونفوسهم مريضة، وأخلاقهم أخلاق الجهلة من الناس، بينهم الحسد والغيبة والنميمة، والخداع، والغدر والغل والاستغلال، وغيرها من أمراض النفس.

فتوقفت فئة من المصلحين إزاء هذه الأمراض ليعالجوا الإرادة الضعيفة وخاصة طلاب العلم والعلماء الذين يشار إليهم بالبنان ووجدوا أن العمل بالشريعة لابد أن يقرن بالنية الصالحة، وخافوا من الشرك الخفي ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[2]، قالت عائشة رضي الله عنها: هم القوم الذين يعملون العمل الصالح ويخافون عدم قبوله. قرأوا آيات العذاب فوقفوا عندها ملياً، وسمعوا آيات التهديد فزهدوا في الدنيا، وفهم بعضهم الزهد على غير حقيقته وهو ترك الدنيا كلها.

وإذ بهذه الفئة هديت إلى مسار التربية الروحية القرآنية لينقلوا النفس إلى مدارك الإحسان «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[3]، ثم وجدوا إزاء آيات الأحكام آيات التزكية والخشوع والتبتل والإخبات.

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٩١].

---

(١) سورة الكهف: ١١٠.
(٢) سورة المؤمنون: ٦٠.
(٣) متفق عليه.

﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٥]

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٥]

﴿ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٤١]

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [سورة الأنفال: ٢]

فهذه الآيات المتكررة، والمتعددة الاتجاهات مع مجموعة الأحاديث الصحيحة، دعت القوم إلى قيام علم جديد هو علم التربية الروحية، ونستطيع تسميته علم تزكية النفس، وسماه أبو الحسن الندوي فقه الباطن. واعتمد هذا العلم على أسلوب تربوي روحي فيه مجاهدة النفس، بمراقبة الله والعبادة الخالصة، مع ذكر كثير لله عز وجل، وتسبيح وحمد ومخالفة للنفس.

سمعوا آيات القلوب فوقفوا عندها وقسموا القلوب إلى قلب سليم وقلب قاسٍ وقلب مريض، وبوبوا لهذه المضغة بحوثاً ودراسات شتى.

آيات كثيرة في الإخبات والخشوع، والتزكية نجدها متناثرة في كتاب الله. وكثير من العلماء لم يتطرق لهذه الآيات وكأنها للتلاوة والتبرك فقط لا للعمل بها، فوجدوا الحاجة الماسة لهذا العلم، الذي هو علم ينفع وينقل المسلم من المعرفة العقلية الفكرية إلى الإحسان، وإلى التبتل إلى الله، فهل هذه بدعة عن المعرفة، أو هي التقوى حقيقة ؟ هل ذكر الله تصوف ؟ أو تطبيق لقوله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[1] وهل التفكر بالله وآلائه صوفية أو اتباع لقوله تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2] ؟

---

(١) سورة البقرة: ١٥٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٩١.

إن العلم إذا لم يقرن بالتزكية النفسية والتربية الروحية هو علم جاف يبعد صاحبه عن الاستمرار في الطاعة والتفكر في أعماق النصوص، لتقوى إرادته في الالتزام بأوامر الله عز وجل، والبعد عن كل ما نهى عنه. فهل تحصل الإرادة المؤمنة الواعية العاملة بلا سلوك التربية الروحية القرآنية ؟ والإرادة فناء رغبات النفس وبقاء رغبات الحق، وهي سمو القلب لطلب المراد، وحقيقتها استدامة الجد وترك الراحة.

إن الحاجة إلى التربية القرآنية دعت علماء التربية الروحية إلى استجماع الوسائل المؤدية بالنفس لتطهر، وللقلب ليصحو ويصفو ويسلم، وللروح لتتزكى. والعلم وحده معرفة عقلية لم تمنع العلماء معرفتهم من التردي في حمأة الأمراض الروحية والغزالي دليل على ذلك، فعلى رغم كونه من كبار علماء عصره في بغداد، أيقن أن المعرفة العقلية لا تحقق اليقين والسمو والصفاء والطهر، فسلك مسلك المربين، وجاهد نفسه على كبر، وسار في منهج التزكية الروحية دراسة وسلوكاً وتعبيراً وتمثلاً، حتى جمع طاقاته النفسية المتمزقة فتزكت روحه وطهر قلبه، فانكشفت له أنوار المعرفة في قلبه فعرف الحقيقة فالتزم بها، فانتقلت المعارف العقلية عنده إلى سلوك عملي تربوي أخلاقي متكامل.

وعلماء التربية الروحية هم الذين استنبطوا المنهج القويم الوحيد لتحقيق الإيمان العملي، عندما وجدوا الحاجة الماسة لها. فالتربية الروحية مدرسة لها مناهجها، وأساليب لها أدلتها من الكتاب والسنة، اكتشفوا طرقها بالتحليل لنصوص الكتاب وسنة الرسول ﷺ، وما كان عليه أصحابه الكرام، كما حددوا طرقها بالكشف والتجربة والممارسة العملية، وتزايدت أساليبها، وكثرت فروعها وسميت في بعض الأحيان بالتصوف ، ونحن في صدد إبعاد هذا الاسم عن هذه المعرفة لاقتران اسم التصوف بانحرافات

البعض، وزيغ الآخرين، وشطط الجهال منهم. كما غاص بعض الذين سلكوا مسلك التزكية النفسية إلى حالات شاذة من الذهول والشرود وهم قلة، فنطقوا بألفاظ تخالف الكتاب والسنة، ولم يسعهم ما وسع الرسول ﷺ وصحابته الكرام على رغم كونهم القدوة والأسوة، وقد تحققت فيهم أسمى معاني التزكية الروحية. وبما أن هذا الاصطلاح تلطخ عند الكثير من المسلمين بأخطاء هذه القلة النادرة، فإننا عمدنا وبدعوة من كبار علماء التربية الروحية المعاصرين، وعلى رأسهم المربي الشيخ أحمد كفتارو، الذي دأب وعمل لإرساءِ قواعد التربية الروحية القرآنية، وتجنب هذا المصطلح القديم، ونبذ كلمة التصوف، والتمسك بالتربية القرآنية والسلوك النبوي الروحي، لأننا نريد الوصول إلى قاسم مشترك بيننا وبين من يقفون أمام هذه المعاني القرآنية الواضحة بالمرصاد، فهل تزكية الروح وذكر الله عز وجل على الهيئة التي كان يقوم بها الرسول عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام، هي تصوف في نظرهم ؟

والتصوف في ماضيه وحاضره قدرة خلاقة لها سلبيتها إذا انحرفت وإيجابيتها إن تمسكت بالنصوص والتزمت بالمبادىء الأساسية للتربية الروحية القرآنية.

فلقد أوجدت الصوفية حركات جهادية في الدعوة الإسلامية على امتداد الشرق الأقصى وأواسط إفريقية، وكان لها الأثر الفاعل في الصمود أمام الاستعمار. فحركة التصوف في ليبيا بقيادة عمر المختار، وحركة عبد القادر الجزائري في الجزائر، والحركة المهدية في السودان، كلها طرق صوفية كان الجهاد في سبيل الله منهجها وكيانها ومنطلقها.

ومن سلبياتها الواضحة نقل الفكر الحضاري الإسلامي إلى حيز المعرفة الروحية والانكماش عليه ونبذ المعرفة الفلسفية، وكانت هذه النقلة

على يد الغزالي عندما هاجم الفلسفة وركّز على المعرفة الروحية وقصر المعرفة على النور، الذي ينكشف في القلب، ومنذ ذلك الوقت زويت الحضارة الإسلامية وصارت العناية بالروح فقط، فعمق الغزالي الفكرة الإسلامية روحاً في ذات المسلم، ولم تتح الظروف للأمة الإسلامية آنذاك للتوازن بين الفكرة الإسلامية الحضارية، والمعرفة الروحية، وذلك لأن الهجوم الصاعق على الفلسفة المترجمة من اليونانية والرومانية والهندية والفارسية، التي أعطت المد الحضاري الإسلامي بعض المحرضات، ليدلي بدلوه في خضم الحضارة الإنسانية، جعل الأمة الإسلامية تقف موقف المعترض على تلك الفلسفات. وانغمس العالم الإسلامي في سبات عميق عندما ازداد الضغط الخارجي من المغول والتتر والصليبية الحاقدة، وتفاقمت الخلافات الداخلية، حتى جعلت المسلم ينزوي إلى المعرفة الروحية، وينبذ كل عوامل الحضارة، من أسس علمية وسياسية، فانكمش على نفسه وعمل لذاته ذكراً وتلاوة وعبادة. ولا يمكن أن ننسى دور التصوف في الحفاظ على الإسلام والمسلمين عندما اشتدت ضربات الأعداء عليه، وما كان إلا دور الكمون والأناة في تعميق الفكرة الإسلامية روحاً وصفاءً ويقيناً، واستمرت الدعوة الهادئة في ثبات ومنهجية فردية عميقة الجذور، قوية في الأعماق، تعمل للحفاظ على المد الإسلامي، وقد أوصلوا الإسلام إلى جزر الفيليبين وأندونيسيا وجميع بلاد شرق آسيا، ثم توغلوا في أفريقيا حتى قامت الخلافة العثمانية على يد محمد الفاتح الذي تربى وتزكى في أحضان هذه المدرسة الروحية والتزكية النفسية القرآنية الصادقة المخلصة.

إذن الحركة الصوفية ليست هي السبب في انزواء حضارتنا أواخر العهد العباسي، وإنما الظروف المختلفة والضغوط الخارجية والداخلية المتنوعة والمتعاونة لتحطيم حضارتنا، هي العوامل الحقيقية في إيقاف المد الحضاري الإسلامي آنذاك، وشارك في ذلك الانحلال الأخلاقي الذي وصلت إليه

الأمة الإسلامية آنذاك، فدعت الحاجة إلى الاتجاه الروحي لتدارك الموقف، ولتطهير القلوب المريضة، وكشف الغبار والران الذي غطى على قلوب المسلمين، فتزايدت الحاجة إلى مدرسة التزكية الروحية، وكثرت طرقها، وعملوا وأخلصوا فأنتجوا لنا مداً إسلامياً جديداً في صورة الخلافة العثمانية، على يد القائد الذي قال عن جيشه الرسول ﷺ: «نعم الجيش ذلك الجيش»[1]. فالمدرسة الروحية هي التي تعمل في الأعماق، وترسي قواعد الشريعة في الذات، فلا يتغير ولا يتبدل من انتسب إليها، وإزاء هذا الموقف الذي آلت إليه الأمة الإسلامية لابد لنا من القول بأن الإنسان له قدرات فكرية وروحية. فعن طريق الفكر والعلم تكون حضارة الإسلام وتمتد شامخة، والقدرات الروحية تحتاج إلى روافد عميقة وتغذية سلوكية. وإننا لنحتاج إلى توازن فكري وروحي فلا تطغى ناحية على الأخرى، وفي ذلك نمد الفكر الحضاري الإسلامي العقلي والروحي بالتوازن لاستمراره في العطاء، وثباته أمام الضغوط المختلفة.

وفي هذا العصر المادي المتعاظم، لا يمكن الاستمرار في الالتزام إلا بالفكر الإسلامي العلمي الرفيع، الذي يعطي المسلم مدداً فكرياً يساعده في تحطيم الفكرة المادية المتعاظمة ويرتفع به إلى درجة اليقين العقلي، والإيمان الثابت المتكامل بأن الإسلام هو الطريق الوحيد لسعادة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة، يؤيده في ذلك قلب سليم، وروح تزكت، ونفس تطهرت، وأخلاق سمت مع الاستمرار في غذاء روحي عاطفي عميق عمق الروح في إشراقاتها، ليثبت المسلم باليقين العقلي والروحي معاً أمام الضغوط المادية والانفعالات النفسية والانحرافات الضالة، فبالروح يثبت وبالفكر يناضل، بالتزكية يصبر، وبالعلم يجادل، بالعقل يدلي بحججه، وبروحه المشرقة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسند: ٤/ ٣٣٥.

يضفي على الفكرة المجردة عاطفة جياشة، تحطم فيه إرادة الوقوف، والتراجع ليثبت وليتقدم بالعلم والروح وبالشريعة والحقيقة، متمسكاً بالكتاب والسنة، ويشكل مدداً فكرياً وروحياً مشرقاً وهاجاً.

قال الإمام مالك: (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق)[1].

والإمام القشيري قال في مقدمة رسالته المشهورة متحدثاً عن الصوفية: (جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم إلى محل المشاهدات بما يتجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية، وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف، وتحققوا بما مَنَّ سبحانه لهم من التقليب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار، ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال، علماً منهم بأنه جلَّ وعلا يفعل ما يريد ويختار ما يشاء من العبيد، لا يحكم عليه خلق ولا يتوجه عليه لمخلوق حق، ثوابه ابتداء فضل، وعذابه حكم بعدل، وأمره قضاء وفصل)[2].

والعلامة المفسر الرازي يقول: (والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية، ويجتهدون ألا يخلو سرهم وبالهم عن

---

(١) نقلاً عن حاشية العدوي على الزرقاني: ٢/١٩٥، وشرح عين العلم وعين الحلم للملا علي القاري: ١/٣٣.

(٢) الرسالة القشيرية: ١/١٨.

ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع الله عز وجل، وهؤلاء هم خير فرق الآدميين)[1].

وللعز بن عبد السلام كلام رائع عن التصوف يقول فيه: (قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى، وقعد غيرهم على الرسوم)[2].

والإمام النووي يقول: (أصول طريق التصوف خمسة: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع السنة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضى عن الله تعالى في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء)[3].

* * *

(١) اعتقادات المسلمين والمشركين للرازي ص ٧٢ـ٧٣.
(٢) نور التحقيق للشيخ حامد صقر ص ٩٦.
(٣) مقاصد الإمام النووي في التوحيد والعبادات وأصول التصوف ص ٢٠.

التربية الروحية
ضرورة ملحة

التربية الروحية ضرورة ملحة ؟

الإسلام كل لا يتجزأ، فكر وروح؛ وكون القرآن الكريم دستور حياة المسلم، فلابدَّ لهذا الدستور من تكامل، فلو قلنا جدلاً بأن القرآن اهتم بالتشريعات وأعطى لها اهتمامات خاصة، وبذا كان نظاماً شاملاً لكل جوانب الحياة التشريعية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ولم نوضح، أو بالأحرى لم نهتم بالجوانب الروحية لدى الإنسان، نكون قد ناقشنا بعض الآيات وتركنا بعضها الآخر، وينطبق علينا قول الله تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾[1]، والقرآن كتاب إلهي متكامل وأهم شيء فيه عنايته بمعالجة أمراض النفس، وانعطافاتها المرضية وهي الغاية الكبرى لوجوده باتباع الطرق الكفيلة بمعالجته روحياً وخلقياً واجتماعياً ليعيش الإنسان حياة سعيدة مليئة بالتكامل بينه وبين نفسه، وبينه وبين المجتمع، وبينه وبين العالم الذي يعيش فيه. ولا يمكن للإنسان المريض أخلاقياً التعايش مع نفسه بهدوء واطمئنان، ولا يقدر على الاستمرار في حياة هادئة ضمن مجتمع أفراده لم تتوضح معاني النضوج الخلقي فيهم.

وهذه الأمراض الاجتماعية والنفسية مثل: محبة الذات، والكبر،

---

(١) سورة البقرة: ٨٥.

والنفاق، والرياء، والكذب، والغيبة، والاستغلال، والانطواء الفردي، وازدراء الآخرين، والخداع، والحقد والحسد؛ لا يمكن معالجتها إلا باتباع منهج إلهي متكامل يستنبط من كتاب الله ويكون ذلك باتباع ما يلي:

١ـ تقوية الإرادة بالمجاهدة والمراقبة والمحبة.

٢ـ العبودية الكاملة ظاهراً وباطناً وضمن الشعور النفسي الأصيل.

٣ـ الإشراق الروحي.

٤ـ صحبة العلماء العاملين.

٥ـ تزكية النفس لتمتلك إرادة التنفيذ العملي للفكرة المجردة.

٦ـ معرفة أحوال السالكين المتقين الذين وصلوا إلى درجة المعرفة الكاملة.

٧ـ التوازن الروحي والفكري لاستمرار الحياة الإسلامية المتكاملة في سلوك المسلم.

٨ـ استقراء الغايات الكبرى من العبادات لتحقيقها في الذات المسلمة.

٩ـ تمثل السلوك النبوي الروحي والفكري والاجتماعي.

وهذه الضرورة الملحة تظهر في الصحوة الإسلامية الموجودة على الساحة الإسلامية التي فرغت من التزكية الروحية. ولذا نجدها فجة عاطفية متوثبة تخمد بعد انطلاق، وتجمد بعد حين. فالدعاة المعاصرون عليهم واجب كبير في تنمية هذا الاتجاه الروحي لإرساء قواعد الثبات عند المسلمين في الأعماق النفسية وضمن ساحة الروح، بالتزكية القرآنية الواضحة المعالم، في سيرة الرسول ﷺ وحياة السلف الصالح.

* * *